لكيلا ننسى (*)

لعل من الخير بمكان: أن يكون العاملون لله، المخلصون لدينه الذي ارتضاه، والحريصون على خدمة هذه الأمة، أن يكونوا على ذكر من حقيقة لا يجوز نسيانها أو تناسيها - وهم في زحمة التيار وعنفوانه - وهي أنهم يتعاملون في طريقهم التي يسلكون مع الخالق الحكيم الذي يعلم السرَّ وأخفى. والذي قوله الحق، ووعده الصدق: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾. لا ينسونها وهم في حال من القوة والنصر، ولا ينسونها وهم في حال الضعف أو ما يؤدي إليه، صنيع النبي - عليه الصلاة والسلام - الذي كان على ذلك في العهدين المكي والمدني وفي جميع الأحوال التي تنتظمها سيرته - عليه الصلاة والسلام -.

صحيح أن نسيان هذه الحقيقة أو تناسيها، قد يكون أثراً من آثار الضعف والتخاذل - على وجه العموم - ولكن الطليعة المؤهلة بقوة ارتباطها بالله المشدودة دائماً إلى مرضاته، والتطلع المتسامي إلى ما وعد عباده المجاهدين الصادقين: هي التي تحمل مسؤولية الوقوف عند المعالم، واليقظة الواعية المتسمة بالنقاء والعمق، عندما ترين الغفلة على كثير من القلوب، وتغشى بأذاها الكثير من النفوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة الرابعة عشرة، ربيع الثاني ١٣٩٢هـ، أيار ١٩٧٣م.

ونحن اليوم في معركتنا مع اليهود وأنصارهم . . مع العدو المتنمر بعد مذلة ضربت بجرَّانها على رأسه عبر القرون، والعون يمده به كل شياطين الإنس من لصوص حقوق الإنسان، وتجار الدماء . . جدير بنا أن نضع تلك الحقيقة نصب أعيننا لكي يكون اليقين رائدنا في وعد الله بنصره إن نحن نصرناه، وأن يكون معنا بقوته حيث نكون معه بالصدق في المواطن، والاستعلاء بإيماننا على ما يكون من العبث والصوارف والركام. فمما لا ريب فيه أن نصر الله لعباده المؤمنين حقيقة من حقائق الوجود تسير على خط مواز كل الموازاة لتكليفهم الجهاد، وشراء أنفسهم وأمواله بأن لهم الجنة . . . وهو أيضاً سنة باقية من سنن الله لا تختص بمكان ولا زمان . . فالله هو الهادي إلى سبل الرشاد، وهو الذي يؤيد بنصره المؤمنين الذين يخوضون معارك الحق والباطل دون أن يرتبط ذلك بعدد أو عدة، بعد أن يكونوا قد بذلوا ما يستطيعون، ولم يبخلوا بشيء من الإعداد والاستعداد.

والتكريم الذي أحاطته العناية بهؤلاء المؤمنين: أنهم ما داموا يبذلون في سبيل الله، فهم ستار لقوة الله ونصره وتأييده، وأعظم بها من نعمة تكلل جبين المؤمن بالغار، وتنعكس على تصوراته وأعماله وإنارة بصيرته على الدوام.

والمقاييس في هذه الميادين منوطة بما يكون من عند الله عز وجل، لا بما يكون من تطلعات البشر الذين قد يضعفون عن إدراك المساحة الحقيقية لأبعاد الموضوع، فلقد يتأخر النصر، ويشتد الكرب، بل قد تقع النتائج التي

لاتبدو وثيقة الصلة بالأسباب التي تقدمتها، حتى يبدو الحق وهو مهزوم في معركة في المعارك، ويتبختر الباطل وهو المنتصر في ميدان من الميادين أو في مرحلة من المراحل، وكل ذلك وفقاً للمقاييس الربانية. وفي دلالات القرآن والحديث وسيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ صور للنصر تخفى حكمتها على البشر؛ ذلك لأن المؤمنين في مسيرتهم الطويلة في ظلال الدعوة وفي مواجهة تحديات الباطل للحق ومظاهرة أهل الفساد على عقيدة التوحيد، ليسوا مسؤولين عن النتائج، وإنما هم مطالبون بالتزام المنهج الرباني الذي رسمه القرآن، والنصر بعد هذا بيد الله العليم الحكيم يصنع فيه ما يشاء، ويقدم له ما يدخل في حكمته من المظاهر والصور ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ كالذي رأينا في صلح الحديبية الذي وقع في السنة السادسة للهجرة، وكان في ظاهره بادرة جنف على المسلمين وهم في موطن القوة. ومراعاة لجانب أعداء الله وسدنة الوثنية والخرافة في جزيرة العرب، غير أن النتائج التي أثمرها صلح الحديبية كانت في حجمها وعمق أبعادها في تاريخ الدعوة أكبر من وثيقة الصلح، وعلى عكس ما كان يظهر للمرء بادئ الأمر لأول وهلة، حتى سماه الله الفتح المبين، إذ أكثر المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ هو ما كان من صلح الحديبية الذي أتاح الفرصة، لتفتيح أعين المشركين ـ عن قرب ـ على أخلاق الدعوة الجديدة، وسماتها المباركة، وما زانت به الفرد المسلم من

كريم الأدب، وطيب الخلق، ولطيف العشرة المؤدبة بينه وبين الآخرين، وفي طليعة ذلك كله ما كان من الطاعة الواعية والحب الصادق للرسول الأمين ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ الأمر الذي كان الطريق الطبيعية لذلك المنعطف التاريخي الهائل في تاريخ العرب، والذي تمثل في دخول الناس في دين الله أفواجاً بعد الفتح.

وهكذا يتحقق وعد الله بالنصر، لكن على الطريقة التي هي من حكمته وإرادته سبحانه، ويرى المؤمن بعين بصيرته مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ويدرك إدراكاً لا يشوبه لبس ما يرمي إليه قوله سبحانه في شأن بعض الوقائع حيث التأكيد الجازم بأن المجاهدين هم الصورة المعبرة عن قوة الله ونصره وتأييده: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وعلى هذا: فليس من شأن المؤمن أن ييأس إذا أظلم ليل الحوادث، واكفهرت جوانب الأفق ما دام يقدم ما يستطيع ويقف موقف الامتثال لما يمليه المنهج الرباني؛ لأنه غير مسؤول ـ كما أسلفنا ـ عن النتائج، ولكنه مسؤول أن يكون عند الذي يطلب منه عملاً وطاعة وبذلاً في سبيل الله. وذلكم هو وثيقة نجاته يوم يضع الله الموازين بالقسط ويقف الناس ليوم الحساب ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن المنطلق نفسه ليس من شأن المؤمن أن يتصرف متكلاً على أسباب اتخذها، ووسائل للنصر أعدها.. ناسياً أن الأمر أولاً وآخراً بيد الله، غافلاً عن حقيقة القوة والنصر.. وذلك ما حصل يوم حنين. حين رأى بعض المؤمنين نوعاً من الغَناء في كثرتهم فقالوا: لن نغلب اليوم من قلة، وعندها جاءت التربية الإلهية ووكلهم الله إلى كثرتهم التي أعجبتهم حتى كأنها حولت الشراع عن الطريق السوي، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً. وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، ولم يثبت في زحمة المعركة الغاضبة الصاخبة التي حمي وطيسها واشتد أوارها إلا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نفر قليل من أصحابه، ثم أنزل الله عليهم سكينته، وأمدهم بجنود لم يروها حتى تم النصر للمؤمنين، وكان من الأمر ما كان، والحمد لله، وذلك قوله جلَّ وعز: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾.

وهذا الذي نقرره وثيق الصلة برغبة الإسلام في أن يكون المؤمن قوياً في عقيدته وجسمه وفكره، قوياً في علمه وخلقه وحسن إعداده وصلته بالحياة ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ وينقلنا ذلك إلى قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: [**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير..**].

كما أنه وثيق الصلة بوجوب النظرة الإيجابية الواعية إلى قضية الرزق والأجل؛ لأن النظرة العكسية لها آثارها السيئة، وأبعادها التي تتنافى مع حياة الجهاد والصبر والمصابرة التي أرادها الله للمؤمن ووعده عليها جنة عرضها السماوات والأرض، والحياة الكريمة عنده إن استشهد في سبيل الله.

ولذلك يمكن القول بأن من سمات النظرات الإسلامية الواقعية: ما يُرى من معالجة أسباب الضعف البشري بشكل جذري يجتث بواعثه ودواعيه من أعماق النفس، بصرف النظر عن الملابسات العارضة التي تطرأ فيما بعد.

ولعل من أهم دواعي الضعف في أعماق النفس: أمر الرزق والأجل؛ فكان من عقيدة المؤمن أن الرزق من أمر الله لا دخل فيه لمخلوق، ولا يستطيع أحد أن يمنعه، أو أن يزيد فيه أو ينقص.. والذي على المرء أن يأخذ بالأسباب ويسلك السبل، ولذلك قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾. حيث أمرنا بالعمل ونسب الرزق إلى نفسه سبحانه. وفي معرض الدلالة على أنه الواحد القهار المدبر يقول عز وجل: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾. وتأخذ بيدنا الآيات إلى إيضاح آخر فنجد قوله تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾.

ومن عقيدة المسلم في شأن الأجل أيضاً: أن الآجال بيد الله سبحانه ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾.

وهي مكتوبة محدودة . . لا يزيد في الأجل تخاذل أو نفاق، ولا ينقصه جرأة في الحق أو جهاد وقتال؛ وذلك قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. وأكثر من ذلك ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

ولقد انعكست هذه النظرة الإيجابية إلى الرزق والأجل على الواقع التاريخي، فرأينا الكثير من الوقائع والبطولات التي زانت جبين تاريخ هذه الأمة، وقدمت للإنسانية الكثير الكثير من النماذج التي احتوت صدورها قضية الأجل والرزق حتى تجاوزت كل المعوقات، واستعلت على كل ما يشدها إلى التراب، واستطاعت أن تفي بحق الدعوة التي بعث بها للإنسانية كلها محمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

مرة أخرى: علينا أن نذكر أن التعامل كائن مع الله عز وجل، وأن المعايير يجب أن تؤخذ من لدنه، والمقاييس عن منهجه الرباني سبحانه، كل ذلك مع الحرص على الإعداد والاستعداد، والأخذ بأسباب القوة والنصر في توكل على الله واعتماد عليه. . ونظرة إيجابية إلى أمر الرزق والأجل تتفق مع مقتضيات عقيدة التوحيد. . .

إننا إن فعلنا ذلك، وكانت لأبناء الأمة القدوة الحسنة، والريادة المؤمنة الواعية. . استطعنا ـ بفضل الله ـ أن نحول دون أن يكون لليأس سلطان على القلوب، أو أن يكون للغفلة غشاوة تجعلنا في غير الساحة التي يشرف على

جنباتها ويوقظ مشاعر أبنائها قول الله القادر القاهر: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

وحديث أمتنا مع يهود حديث طويل والرحلة التاريخية مع أعداء الله على وجه العموم طويلة طول الصراع بين الحق والباطل، وهذا ما يوجب الإعداد المتجدد، بدءاً من بناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بناءً متكاملاً متوازناً يكون كفاء تلك الرحلة المتعددة الألوان، والمشعبة الميادين. ولله الأمر من قبل ومن بعد ولاحول ولا قوة إلا بالله.

صوت النذير(*)

دلت كل التجارب في الماضي والحاضر: أن الاعتزاز الأصيل بالانتماء إلى هذه الأمة في مقومات وجودها، وخصائص ثقافتها وفكرها.. دليل الصدق والرجولة، والبعد عن المسخ الذي يدبر له الأعداء صباح مساء، وعنوان القدرة على الاستمرار في حال الشدة والكرب، تماماً كما في حال السعة والرخاء، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما كشف عن نوازع الضعف في النفس الإنسانية، والرغبة في استعجال الثمرة، واستطالة الطريق بقوله لخباب ـ رضي الله عنه ـ: «.... **ولكنكم تستعجلون**».

ألا إن الشجاعة في صدق الانتماء إلى الرسالة التي جاء بها محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: التزام أحكام الإسلام على وعورة الطريق وتنوع الملابسات... وما يكون من العوائق التي تعمل من داخل النفس، أو خارجها... إن الشجاعة في ذلك لهي خير ضمان لسلامة كيان الأمة فرداً وجماعة في الداخل؛ لأنها تكون يومئذ كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، كما أنها الدرع الحصينة في ميدان مواجهة العدو؛ لأنها تفوت عليه فرص الانقضاض من خلال ثغرات التخلخل، ومرض التشكك بالراية التي يكون الجهاد في ظلها، ويُبذل ما يبذل في حمى رسالتها... وأكثر من هذا.. أن الأمة باستقامتها على هذه الطريقة تفوز بقدر ليس بالقليل

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة الرابعة عشرة، جمادى الأولى ١٣٩٣هـ، حزيران ١٩٧٣م.

من ميراث النبوة في قوله عليه الصلاة والسلام: [**نصرت بالرعب مسيرة شهر**].

وما أجدرنا اليوم أن نعمد إلى قراءة جديدة لتاريخنا، قراءة بعقولنا وبصائرنا، لا بعقول الآخرين وأغراضهم، قراءة تشدنا إلى حيث الحقيقة التي يحميها الالتزام الصادق بمتطلبات العقيدة وتبعات الرسالة..

هذا جانب من حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا وفيهم كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.. يعطي سمة من سمات الجماعة المسلمة يومذاك، في الاستجابة الواعية والعمل الدقيق بتوجيهات الرسول القائد، وكيف أن ذلك كان على كل صعيد؛ فلم تحل دونه صلة قربى أو آصرة من أواصر الدنيا، ثم كيف كان ذلك ـ بحق ـ إطار السلامة لمجتمع المدينة في الداخل، وصمام الأمان ضد العدو في الخارج. يقول كعب ـ رضي الله عنه ـ: «ونهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس ـ أو قال: تغيروا لنا ـ حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف؛ فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي: فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا: فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني واحد وآتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفيته بردِّ السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي، نظر إليَّ، وإذا التفتُّ

نحوه أعرض عني؛ حتى إذا طال علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ـ فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت الجدار».

ثم قال كعب: «فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نَبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان ـ وكنت كاتباً ـ فقرأته فإذا فيه: (أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحق بنا نُواسك). يقول كعب ـ رضي الله عنه ـ: «فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتيمَّمت بها التنور، فسجرتها». أي أحرقتها.

وإني تارك للقارئ الكريم فرصة الحوار مع مدلول هذا الجانب من حديث كعب الذي رواه البخاري وغيره دون أن أدخل في شيء من ذلك، مكتفياً بالإشارة العابرة من قبل.

وما كان للقاعدة الربانية ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ أن تتخلف، وإنها من هذه الأمة قاب قوسين أو أدنى إن استأنفت الطريق وعقلت أمرها من جديد.

ولقد يجد المرء نفسه ـ والأسى يعض قلبه ـ مضطراً للاستشهاد بشيء مما يسلكه العدو في تجميع يهود الآفاق على ما يسمونه مثلاً دينية وفضائل، وترى ذلك يعمل عمله في تحقيق الغاية المرادة.

فبعد الخامس من حزيران لعام ١٩٦٧م وقف اليهودي ابن غوريون أمام ما يسمونه «حائط المبكى» في القدس ليعلن للناس أن هذه المعركة قد أدت إلى تحقيق نبوءة العهد القديم التي تقول بأن «شعب الله المختار سينتهي به المطاف إلى أن يعسكر بفعل القوة عند حدود أرض إسرائيل التاريخية».

ومع هذه العنصرية والعمل في ظل أكذوبة «شعب الله المختار» التي يأباها الله وأنبياؤه أجمعون، نجد نوعاً من التهيئة النفسية للشباب، وشحن أذهانهم بما يجعلهم يقاتلون في سبيل رسالة وتحقيق فضائل؛ فجيش إسرائيل هو جيش «يهوه»، وما يقوم به من أعمال انتقامية ـ والأمثلة كثيرة ـ ليست أكثر من قتال مقدس يتم بإرشاد إله صهيون، ولمصلحته.

وقد ولَّد ذلك عند يهود ـ وهم في الأصل من أجبن الجبناء ـ أن الإذلال الأكبر الذي يتعرض له أي يهودي في إسرائيل هو حرمانه من الانخراط في ميدان القتال.

صحيح أن كثيراً مما يطبقه زعماء اليهود السفاكون اليوم في تربيتهم للجيل الناشئ، وما يشحنون به مشاعر الشعب: قد يكون من بعض وجوهه صورة من عقدة الخوف التي لاحقت السبط اليهودي منذ آلاف السنين، وما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة بجناياتهم وذنوبهم التي منها قتل الأنبياء بغير

حق . . قد يكون ذلك أو غيره، ولكن محاولة التجميع وشحن المشاعر والتربية على تلك الشعارات أمر يجب أن يستوقفنا طويلاً، وأن نعطيه ما هو جدير به من الاهتمام، خصوصاً إذا أدركنا أن التدين عندهم عنصرية وحقد، ودعوى تخالف إنسانية الإنسان في أنهم «شعب الله المختار»، بينما يقوم الأمر عندنا على إنسانية الإنسان وكرامته، وتحقيق أن العبودية لا تكون إلا لله عز وجل، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وأن مطلوباً من المسلم أن يؤمن بجميع رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وإذا كان لابد مما ليس منه بد، فلتتنافس هذه الأمة في أن تعود إلى معالم القوة تسائلها من أين وإلى أين؟ كيما يكون مسلكها كفاء ما تعاني من ويلات على كل صعيد.

أن تبتلى أمة العقيدة والجهاد والصبر بمن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وأذنابهم: إنما هو صوت النذير يناديها فهل تلبي النداء، وإعلان سيد المجاهدين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعوها فهل تستجيب الدعاء؟

ليس من أدب القرن العشرين(*)

في نظرة موضوعية إلى الحضارة الحديثة ومعطياتها، وطبيعة العلاقة التي تربط بين أهلها وبين الشعوب، وما كان من حظنا العاثر في هذه الحقبة من الزمن، يجدر بنا أن نكون على كثير من الوعي في حكمنا على الأشياء، كيما يكون موقفنا من تلك الحضارة وأهلها متسقاً كل الاتساق مع ما تفرضه الموضوعية والتكامل، ولا ينأى عن الإحاطة بكل المؤشرات التي تربط ذلك بمصالح أمتنا وقضاياها، وبناء الجيل الذي يراد له أن يحمل عبء التغيير إلى الأفضل.

نريد أن نأخذ من منجزات هذه الحضارة وعيوننا مفتحة وقلوبنا واعية، وأن ننظر إلى الصورة كاملة غير منقوصة.. فلا تنسينا معطياتها المادية وتبختر مركباتها الفضائية على ظهر القمر، تلك الجوانب الأخرى التي تبدو هزيلة شاحبة في ساحة الأخلاق والحرية وكرامة الإنسان ـ خارج الحدود ـ وحقوق الشعوب.

وإذا كان الصراع بيننا وبين إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل، هو من بعض وجوهه صراع بين حضارتين ـ باعتبارها واحداً من هذه المخالب ـ فقد آن لنا ـ وهذا واحد من أسلحة المواجهة في البناء النفسي ـ أن نحسن استقلال الكيان جيلنا الحاضر ونفتح أعينه على الحقيقة، كيما يدرك معنى الصراع من أجل البقاء مع هؤلاء اليهود.. نعم من أجل بقائنا برسالة تسعد الإنسان، وتمسح

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة الرابعة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ، تموز ١٩٧٣م.

عن وجه الدنيا ما علاه من آثار الشقاء والظلم والطغيان باسم العلم والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان . . كالذي فعلناه يوم رد أبطالنا الصادقون شراسة الصليبيين والتتار . .

وإنما نقول ذلك، لأن من التناقض الصارخ: أن يظل هذا الجيل أو بعض قطاعاته معصوب العينين باستهتاره، مغلق الفكر والعقل بلهوه عن حضارة أمته الماجدة، تلك الحضارة التي لم تدع ميداناً من ميادين الخير إلا وضعت بصماتها وآثارها على أرجائه بإنسانية وتجرد وعمق.

وإنه لتناقض ترهق الأمة آثاره التي تُفقد الفرد قدرته على التحرك من داخل نفسه وأعماقه، كيما يثبت وجوده، وينتصر لأمته، ويدافع عن حقه في الحياة؛ فقد سخَّرت الحضارة الحديثة التي ننظر إليها من خلال عقيدتنا ومناهجنا الفكرية بإنصاف، سخرت كل الطاقات الفكرية والتقنية وما وصل إليه العقل البشري من مراحل هي أشبه بالخيال، في سبيل السيطرة والمصالح الاقتصادية والسياسية للأقوياء، وأهدرت كل حقوق الشعوب الضعيفة وقسمت العالم إلى مناطق نفوذ، ترزح تحت أقدام الطغاة الذين يتلاعبون بمقدرات الشعوب هنا وهناك.

أما الأخلاق: فقد أصبح الحديث عنها غريباً على كهوف الانحراف المظلمة العفنة، وما هيأ العقل البشري من وسائل وما فتح من آفاق. ولم يعد غريباً أن تسمع أو تقرأ بين الحين والحين عن فضيحة سياسية في بلد كذا وفضيحة جنسية بين الكبار في بلد كذا، حتى علقت بعض الصحف

الأجنبية على فضيحة «ووترغيت» بقولها: عندما يكون الحديث عن بيت للدعارة لا تسأل صاحبة البيت ما إذا كانت عذراء. وكم بين هذه الفضائح على تعدد ألوانها من تداخل. ومسكينة تلك القيم الخلقية التي كانت سلعاً للمتاجرة عندهم في يوم من الأيام.. وكم هي مظلومة تلك الشعارات التي طرحوها ويطرحونها يدلون بها على الناس، ويمتطون بضجيجها وعجيجها على أرائك التسلط، وقد أذاقونا من خلالها وتحت عناوينها السم الزعاف.. وسل عن هذا ترابنا.. ومقدساتنا.. وثكالانا.. وأيتامنا.. ومشردينا فوق كل أرض وتحت كل سماء.

إن الأرض التي تجري عليها تلك الفضائح هي أرض أولئك الذين يحاولون ـ بأخلاق العتاة اللئام ـ أن يمنعونا من التقاط أنفاسنا كي لا نقوى حتى على المطالبة بالحق.. ريثما يتم الله أمره، ونستكمل عناصر القوة، ويصبح في مقدورنا ـ بعون الله ـ أن نفجر الأرض تحت أقدام الكفرة الغاصبين مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**﴾.

وهي هي أرض أولئك الذين يضربون على أمتنا بالأسداد.. ويسخرون يهود العالم ـ بلا استثناء ـ علماء وغير علماء لإعطائنا هوية القطيع التائه الذي لا حول له ولا طول، هوية الحيرة القائلة بعيداً عن الانتماء الأصيل، والارتباط بمنطلقات تحمل على الشعور بالذاتية والكيان، وتأخذ بالفرد إلى ساحات التضحية والبذل عن قناعة وإيمان في ظل قولة الخليفة الأول ـ رضي الله عنه ـ: «اطلب الموت توهب لك الحياة..».

وهي هي أرض أولئك الذين يظاهرون على التصفية الجسدية للمسلمين في الفليبين . . وهم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها إذا خسرت البشرية واحداً من أبنائهم قد لا يساوي عند الله لعقة خنزير .

ترى هل تشرق الشمس على يوم نجد فيه ـ نحن الذين أصبحنا عدداً بلا مضمون ـ ما يأسو حضارة القرن العشرين، ويمسح عنها دم الجناية وقد سقطت من يدها سكين الجزار!!!

هذا ولسنا اليوم بسبيل أن نردد النواح المألوف على حال أمتنا، فالوقت أعز من أن يضيع بالمفاخرة أو النواح، ولكننا بسبيل الإسهام في محاولة تغيير واقع الأمة إلى ما هو خير مما هي عليه في تركيب بنائها من الداخل، ثم قدرتها على مواجهة العدو الماكر مكر يهود، الذي تعددت عناوينه، وتنوعت أساليبه وميادينه . . وبات يفيد كل يوم جديداً من معطيات العلم الحديث، والتيارات الحضارية، ووسائل الحكم على شعوبنا من خلال خلفياتها التاريخية، وتركيب مجتمعاتها، ومقدار قربها أو بعدها عن منطلقاتها الأولى التي كان لها في تاريخ الإنسانية شيء مذكور، والتي بنت لنا معارك بدر، والأحزاب، وبني قريظة، وبني قينقاع، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت . .

وفي ضوء ذلك كله، ورصد للمقدمات والنتائج، وإنصاف قضايانا من أنفسنا بجرأة ووضوح، والتفريق بين الأخذ الواعي من حضارة الآخرين، وبين الذوبان والضياع . . تبدو الأمانة ثقيلة على كواهل الرواد من أبناء هذه

الأمة وقد ملكهم الله مفاتيح التغيير، أن يخلصوا في تبصير هذا الجيل كيف يفيد من الحضارة، دون أن يفقد هويته، في شده إلى حاضرة أمته الإنسانية من جديد. . . حتى يدرك أنها الحضارة التي تنبع من عقيدة التوحيد وتؤمن بالعلم، وتفتح أمام العقل آفاقه، وتحارب التقليد الأعمى، وتربط الإيمان بالتفكير في آيات الله الكونية، وفي النفس الإنسانية. . وإنها الحضارة التي أحسنت التنسيق في علاقة الإنسان بالكون والحياة، وكرَّمت هذا الإنسان بما هيأه الله للخلافة في هذه الأرض. . ومن خلال ذلك تراها وهي تحمله دائماً إلى الغاية النبيلة بوسيلة نبيلة مثلها. .

إن على هؤلاء الرواد أن يضعوا يد الجيل على الواقع التاريخي الذي أثبت صدق علاقة هذه الحضارة بالمعرفة والفكر والأخلاق، وإنسانية الإنسان، والقدرة على أن تكون أخلاقيتها هي المهيمنة دائماً على كل التصرفات ـ في الداخل والخارج ـ في ظل عقيدة سمحة كريمة لا تسمح بالعبودية لغير الله، ولا بالانحناء إلا له، ولا بالسجود إلا بين يديه سبحانه. .

ألا وإن حضارة تقدِّم على سلامة اتجاهها، وشمولها، وعمقها، وإنسانيتها آلاف الشواهد من الأبطال والعلماء والمصنفات في شتى أنواع العلم والمعرفة، والأنظمة التي تكفل العدالة والخير، والآثار الناطقة بكل هذا في كل أرض وطئتها أقدام المسلمين، وارتفعت على رباها راية التوحيد، ونادى المنادي على منائرها الله أكبر. . إن حضارة هذه سماتها ـ ولسنا في معرض التفصيل ـ جديرة ـ وايم الحق ـ أن تشد إليها أبناءها وبناتها

من جديد، حتى يشعروا بصدق نسبتهم إليها، معتزين بمعالمها الربانية ومنجزاتها في العالمين. . وذلك كفيل بأن يدفعهم في زحمة الصراع إلى متابعة المسيرة الخيرة، حتى يعيدوا في الناس سيرة العقيدة تنجب الأبطال. والحقيقة تهزم الخرافة، والعلم النافع في خدمة الإنسان، وتثبيت معالم الحضارة؛ لا وسيلة لتدمير الحضارة واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

هذا هو المنطق اليوم. . أوليس حرياً بنا ـ والأمر هو الأمر ـ أن نعود بحرقة بالغة، ورجولة صادقة، إلى حيث يتسنى لنا أن نضع الأمور مواضعها وأن نكون ممن يصنعون الأحداث، لا أن نكون ملهاة الأحداث، وسخرية التاريخ. .

لقد خاضت أمتنا قبيل أربع مئة وألف عام معركة تحرير الإنسان على أساس من عقيدة الفطرة. . وتبوأت قمة الانتصار تحت راية القرآن. . . ولقد دار التاريخ دورته واستنسر البغاث. . فإن عادت بعد هذه الغفوة عودة الهدى: عاد لها الخير، وتسلمت دور القيادة من جديد ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.

فيا لعزمات الرجال تستعلي على العقبات. . وتعمل عملها في تحقيق تلك الشرائط التي يكون من ورائها ما وعد الله. . والله لا يخلف الميعاد. اللهم إنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر، والفوز بالتقوى والنجاة من

النار. اللهم أنت القادر على أن تغيث هذه الأمة. فتؤلف القلوب بعد شتات، وتجمعها بعد تفرق..

اللهم تولنا بعنايتك التي لا تقهر، حتى تثبت الأقدام عند اللقاء، وتتراص الصفوف عند المواجهة، وحتى تتم البشرى، وتقع الطمأنينة، ويفرح المؤمنون بنصر الله.

اللهم أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

obeikandl.com

الآية الكبرى .. والواقع(*)

كلما دار الزمن دورته من شهر إلى شهر ومن سنة إلى سنة: عاود التذكار هذه الأمة، فذكرت معجزة الإسراء والمعراج وما كان فيها من تكريم الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومواساته بعد عام الحزن؛ حيث توفيت خديجة وأبو طالب، وكان ما كان من «ثقيف»، فشرح الله صدره، وأجزل له العطاء، ورفع في العالمين ذكره، وأعلى قدره على جميع الخلائق وأسرى به إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله، وصلى بالأنبياء إماماً، وعرج به إلى السماوات العُلى فكان ما كان من الفضل العميم إذ أراه جل وعلا من آياته الكبرى، وكرمه بالوصول إلى سدرة المنتهى، وفرض على الأمة خمس صلوات هي في ثوابها خمسون.

وكانت تلك المعجزة دليلاً جديداً على صدق نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه أرسل من عند ربه عز وجل يؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة، كما كانت امتحاناً للناس، فازداد المؤمنون إيماناً، ورسخت في ميدان اليقين أقدامهم، وخرج عن دائرة الخير بعض أولئك المشككين والذين في قلوبهم مرض.

من سمات الإيمان أنه مرتقى صعب لا تقوى عليه النفوس المهزولة، ولا أولئك الذين يُحكّمون الهوى أو يضعون العقل في الموضع الذي يتجاوز حدوده ويحمله فوق طاقته ويجعله في مرتبة الوحي.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السادس، السنة الرابعة عشرة، شعبان ١٣٩٣هـ، أيلول ١٩٧٣م.

مع أن وظيفة العقل فهم ما يأتي به الوحي، والتدبر في آيات الله في الآفاق وفي النفس الإنسانية، ليكون ذلك طريق الإيمان الصحيح، والإفادة من تسخير الكون وسبر اغوار العلم والمعرفة في سبيل سعادة الإنسان، وسلوكه طريقاً واضحة المعالم، محددة الاتجاه؛ تصل به إلى تحقيق إنسانيته وتكرمه بمرضاة الله عز وجل.

وهذا الوجه من المعجزة العظيمة يظل حياً طرياً ـ وكلها حياة ـ في كل عصر مهما تقلبت الأيام بما فيه من الدلالة الصادقة على نبوة الرسول ـ عليه السلام ـ من ربه عز وجل وبما فيه من اختبار.

الإيمان والقدرة على التسليم بما يجب به التسليم، ما دام الخبر الصادق قد جاء به من طريق ثابتة مأمونة تنفي أي ريب أو احتمال. وآثار هذا الإيمان في مد الأمة بالقوة والثبات في مختلف مراحل التاريخ ـ في ميادين الحقيقة والرجال ـ ظاهرة لكل ذي عينين.

ولئن كانت دورة الزمن تشد الأمة إلى التذكار، لترى المعجزة في أبعادها ومراميها، إن مما تتفطر له الأكباد ويذوب له قلب المؤمن كمداً وحزناً، أن تعاودنا الذكرى عاماً بعد عام، والأقصى الذي بارك الله حوله وكثير من تلك الأرض المباركة، ما تزال تحت سلطان يهود، حيث تنتهك الحرمات، وترتكب المآثم، ويعمل حقد القرون عمله، وترتفع عصا الجبان، ويهزأ اللؤم بالقيم، وتغيّر المعالم، ويضع الغاصبون كل الأسس والمخططات في تحدٍّ للزمن والتاريخ وكرامة الإنسان، لإيجاد دنيا يهودية جديدة هناك، تبرز

بكل سماتها ومظاهرها، وكأن القوم هم أصحاب الحق الشرعي، كما يزعمون، ولم يكف ذلك كله، حتى أحرقوا المسجد الأقصى.. ولم نشعر أن كرامتنا قد مرغت بالتراب، وأن المعتقد الذي يمثل الذات قد انقضّ عليه السفاكون، وكان من الأمر ما كان.. وهي سلسلة مذؤومة لسنا في منجاة من غبارها وأذاها.

ذلكم هو الواقع... وليس يجدي إذا جد الجد شقُّ الجيوب والنواح، ولكن الذي يجدي إرادة جادة حازمة، واستعانة بالله صادقة، مع إعداد العدة من وجهيها المادي والمعنوي.. ولن يكون من وراء ذلك إلا النصر بإذن الله.. وما أحسبه مكروراً من القول أن على أبناء هذه الأمة أن يذكروا في شهر الإسراء والمعراج معنى الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وموضع ذلك في ميزان العقيدة بالنسبة للمسلم، وأي واجب حمله محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذه الأمة في الحفاظ على المسجد الأقصى حفاظها على بيت الله الحرام، وأن من الوفاء للمعجزة ولصاحبها، وللرسالة ومدلولاتها، أن تصدق الأمة في نظرتها إلى المصاب الجلل، بعيداً عن التبلد واللامبالاة، بعيداً عن أن تنسيها الأيام مهما طال أمدها وقست أهوالها، ذلك التراب الطهور الذي صلى عليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إماماً بالأنبياء عليهم السلام يوم أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والذي تضاعف فيه الصلاة إلى خمس مئة ضعف، والذي عطرته دماء الشهداء من الصحابة، ومن جند نور الدين وصلاح

الدين، وكل من انتظم في تلك القافلة المباركة، قافلة المجاهدين الصادقين.

إن من الزراية بالقيم، والاستهتار بمعاني الإسلام والرجولة، أن يتبلد الحسّ فنصبح على الهوان راضين مختارين، وأن تقسو منا القلوب، فلا تفجر الأحداث كوامن النفس، ولا تهز أعماق المشاعر، وإن من نذر السوء أن تنحسر معاني الحياة حتى تقبع في زاوية المصلحة القريبة القريبة، علماً بأن من أبسط قواعد السلوك الإسلامي في علاقة الفرد بالجماعة والأمة [**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**].

غير أني لا أنكر أن القضية لابد أن تبدأ من سلامة التصور كيما يدرك هذا الجيل معنى علاقته بالأرض التي يحتلها من ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وما الذي هو مطالب به في منطق العقيدة والإخلاص لأمته ورسالتها في العالمين.

وأين يجب أن يكون موضعه من قوافل الشهداء الأبرار، وما هو برهان صدقه في دعوى الانتساب إلى دين رضيه الله لعباده وأمرهم بالتزام أحكامه بوصفه منهاجاً كاملاً للحياة.

ثم ما هي الأبعاد الحقيقية التي يأخذها في نفسه وقلبه وشعوره وعقله قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾.

إننا إذا أردنا أن نأخذ أنفسنا بأدب الشجاعة، والنقد الذاتي، فمن

الواجب أن يكون لنا ـ مع معرفة كل ما يمكن عن العدو ومخططاته وما يبيت لهذه الأمة ـ رصد صحيح ومنهجي لكل خطوة نخطوها، ولكل عمل نعمله، واضعين في الاعتبار سلامة الموازين التي يجب أن توزن به الخطا والأعمال، حتى يكون من نتيجة التقويم الصحيح معرفة الخطأ من الصواب؛ فما كان خطأ يجتنب، وما كان صحيحاً يتابع. وكذلك كان عمل القرآن في إعداده للأمة حيث تنزل الآيات بالكلام عن الواقعة بما للجماعة وما عليها بياناً وتوجيهاً لا تفقدهما في واحدة من تلك الوقائع.

إذ ليس يعني أن ننظر إلى المشكلة من وجه واحد، بل لابد من الجرأة والنظر بعناية إلى الوجه الآخر.. كيما ندرك وننقل هذا الإدراك بأمانة إلى الأجيال التي تأتي من بعدنا، كيف أن انقضاض أهل الحرمات على حرماتهم هو من أخطر الثغرات التي تمهد للعدو أن يظهر، وللجبان أن يستعلي؛ هذا مع وضع كل الاعتبارات العالمية، والعوامل المتعددة التي تسهم في إيجاد المناخ الظالم لغرس جسم غريب في كيان هذه الأمة وأرضها.

إنا لنرجو أن تكون ذكرى الإسراء والمعراج حافزاً لهذه الأمة، يذكرها معالم العقيدة، ويشدها إلى أصالتها، ويبصرها مرة أخرى بالحداء الخالد النابع من «لا إله إلا الله» المضمخ بعبير ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ ذلك الحداء الذي كان في قلب كل واحد، من أبناء اليرموك وحطين وعين جالوت.. إن طريق التغيير مملوء بالتبعات، ومشاق الالتزام ولكنه طريق الجنة ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وإنها لمسؤولية لا يطيقها إلا أولو الصدق مع الله. . ولكنها ميراث النبوة. . ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وإذا وسوس الشيطان بزخرف العاجلة، وسولت النفس حب العافية، ولوّح الهوى بالبعد عن كهوف المصاعب، والتنديد بطول الطريق، فليذكر المؤمن قول الله تعالى في تبصير عباده بالقيم والموازين والغايات: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. وليذكر العاملون أي صفحة شاؤوا من تاريخ المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأي واقعة أرادوا من وقائع سيرة نبيهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الذي صارع الباطل، وعمل لخير الإنسانية فصبر وصابر، وجاهد وقاتل، وكسرت رباعيته يوم أحد، ووقع في كمين نصبه له الأعداء، وسما عن الدنيا وأوضارها، فكان يمضي عليه الشهر أو الشهران لا يوقد في بيته نار، ونام على الحصير وأثر السرير المرمَل في جنبه، وكان يرى أن مثَله ومثل الدنيا كمثل راكب أناخ براحلته في ظل شجرة ثم ارتحل وتركها. وقال كلمته التي ما تزال ولن تزال ضياء التاريخ وشعار البررة من أبناء هذه الأمة: [**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**]. ولخّص بكلمة جامعة كل ما يمكن أن يدخل على

النفس من هنا وهناك من نفثات شياطين الإنس أو الجن، مع بعث الطمأنينة في نفس العاملين، وتأكيد صدق وعد الله بنصر دعوته مهما طال الطريق.

ذلكم قوله لخباب ـ رضي الله عنه ـ [**وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**] حيث أنزل الله بعد ذلك قوله سبحانه: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾.

وكانت له عليه الصلاة والسلام جولات مع اليهود عرّى فيها خلائقهم وسمات سلوكهم، وأثبت للناس على مدى العصور أنهم قوم لا ينفع معهم إقناع ولا إقامة حجة، ولا يُجدي في مواجهة تآمرهم إلا ما فعله هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وستظل البشرية ـ في مواجهة داء اليهودية العالمية ـ تائهة تضرب في حديد بارد ما لم تستهد بالمعالم التي وضعها ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طريق تعامله معهم، بعد طول تجربة ومعاناة على كل صعيد.

أما بعد: فإن أمتنا في صراعها مع الباطل، ومعاركها مع اليهود ومن يظاهرونهم عليها بحاجة ـ مع كل واجبات الإعداد والاستعداد ـ إلى قراءة واعية جديدة لسيرة نبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، واستشفاف ما وراء السطور في معاركها الخالدة عبر التاريخ، وذلك بقلوب متعطشة إلى النور، وعقول متفتحة على حب الحقيقة، ونفوس صادقة العزم على التغيير، واعتزاز بالأصالة وسلامة المنطلقات. إن أمتنا حين تبدأ الطريق من هنا..

لن تمر بها واحدة من ذكرياتها الخالدات أو قارعة من القوارع مرور الصوت بالجماد - وإن كان الجماد يسجل اليوم - ولكن تمر بها مرور الدم الدافق يبعث الحياة، والنور الساطع يبدد الظلمة، وصيحة النذير توقظ الغافل من سبات وإنها حين تفعل ذلك . . لن تكون مغلقة النوافذ عن العالم، ولكنها تأخذ بوعي، وتعطي بيقظة، دون أن تضيع هويتها وتذوب فيما عند الآخرين .

وإذا كان إيمان المؤمن يطارد اليأس، ويوجه دائماً إلى الإيجابية والعمل البناء، فإنا لنرى أنه - بمشيئة الله وعونه - لابد أن يأتي ذلك اليوم الذي يشهد جيلاً يكرمه الله بالقدرة على حمل العبء، ويسعده بقيادة الأمة إلى مرابع الحرية والخير وكل ما فيه سعادة الإنسانية الحائرة من جديد . . .

وإنه لحق يراه المؤمن من خلال العوائق والمصاعب والنكبات، ويستوحيه من سنة الله في نصرته للحق الذي أنزل به كتبه وأرسل في بيانه رسله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ . وصلى الله وسلم على من بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .

وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين(*)

حطام هنا وركام هناك.. والأيام تحبو.. وليل الإنسانية يثقل ويتطاول.. والعقول تهرب من ذاتها لتبايع الخرافة على عبادة الوثن.. والانحناء على عتبة الأنصاب.. والكهانة آمرة ناهية لا تفتأ تعبث مقبلة.. وتثير مدبرة دونما رقيب أو عتيد.. والطاقات نائمة تحت كابوس التقليد الأعمى.. والطواف حول موروثات جاهلية ليس أقلها التعظم بالآباء.. والمكاثرة حتى بالموتى.. ومن حاول العدوان على هذه التركة المثقلة بالأوضار.. حلت عليه غضبة الشعر.. وكان حظه «فنجهل فوق جهل الجاهلينا».

وتطل الحقيقة من وراء الأفق البعيد.. ويبتسم غار حراء.. وتنزل بالخير العميم رسالة السماء ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وتشرق على الدنيا كلمات تدل الضال على الطريق.. وترد الحائر إلى الصراط السوي، فتحيي موات القلوب.. وتستثير المشاعر.. وتستخرج الدفين من المواهب والطاقات.. فتحول الخامات إلى عمل.. وتصوغ من المعادن رجالاً يحرسون التوحيد بعد أن كانوا يعبدون الوثن.. ويصبحون حماة الحق حيثما كان.. بعد أن كانوا سخرية الجاهلية وجند الكثير من الباطل..

كانت الكلمات ترجمان القضية كلها.. قضية الإنسان على اتساع

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخامس، السنة الرابعة عشرة، رجب ١٣٩٣هـ، آب ١٩٧٣م.

أبعادها في الدنيا والآخرة.. قضية الحق تقتحم شراسة الباطل، والعقل تغشاه ظلمة الخرافة.. وإن شئت فقل: قضية الفطرة يزاولها ركام النسيان فلا إضاءة ولا إشراق...

وهكذا يكون.. عندما يغمر الدنيا سلطان الوحي.. فيعترى الباطل وتوضع الأمور مواضعها.. وتنهزم البهرجات والزيوف.. ويظهر لكل ذي بصيرة: أنه لا مكان للخرافة ولا للتقليد الأعمى في ساحة يغمرها سلطان الوحي، وتشرق على أرجائها رسالة السماء..

كلمات هي للحقيقة نسَبها الأبدي، وللإنسانية هداها المنبثق من نور الله.. الإنسانية التي لم يبارحها الضنى عبر القرون.. في رحلة طويلة من تحديات الزمان والمكان.. وتحت حراب الطغيان والطغاة.. وفوارق العنصرية والطبقية هنا وهناك..

وكذلك شاء الله لرسالة الإسلام، أن تكون أقوى من السدود والقيود.. رسالة للإنسانية كلها.. تتخطى حدود الزمان والمكان.. وتزري بفوارق الجنس واللون وتخاطب الناس ـ كل الناس ـ بلسان عربي مبين: أن الناس لآدم وآدم من تراب ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾..

وكذلك اقتضت حكمة الله.. أن يكون اليتيم الذي تقطعت دونه أسباب الأرض.. هو الرحمة المهداه للعالمين.. للإنسان قبل أن يكون في جنسه

من هنا . . أو طبقته من هناك . . دونما حساب لعمره الزمني ـ عليه الصلاة والسلام ـ . . فلئن كانت الأعوام الثلاثة والعشرون جزءاً من الزمن . . أن الزمن كله ـ على الحقيقة ـ لها، لأنها ـ بما حملت من معالم النور ـ هي روحه ومعنى وجوده . . وكان ذلك واحدة من سمات العدل الإلهي أن يخاطب كل إنسان مدرك بالوحي الذي تنزل على محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مهما امتد بالإنسانية الزمان . . وأوسع لها في أرجاء المكان . . وتلونت بحياتها الظروف . . وتفجرت طاقاتها العلمية والفكرية . . وسخر لها ما كان في الكون جميعاً .

وعلى خط هذه السمة من سمات العدل الإلهي، وتكريم الإنسان بكلمة الهدى، ليكون خليفة الله في الأرض: نقرأ قول الله تعالى تحديداً لما يجب أن يكون عليه موقف الإنسان تجاه هذه الرسالة، وتأصيلاً للحقيقة أن تعبث بمدلولاتها الأهواء، والنزوع إلى حب السلامة والتفلت: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾. ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾. ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾.

ولئن كان من رحمة الله بعباده أن أرسل فيهم نبيه محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لقد كان من مظاهر هذه الرحمة واستقرارها أنه ـ صلوات الله عليه ـ كان لا يني يبذل الجهد الصابر في توعية الأمة وتبصيرها بأمور دينها، ودلالتها على الطريق الذي يضمن لها عز الدنيا وسعادة الآخرة. وما تلك الثروة المباركة من حديث رسول الله إلا ثمرة من ثمرات هذا الحرص منه على أن لا يفارق الدنيا إلا قد أدى أمانة التبليغ والهداية . . وقد كان ذلك ـ

والحمد لله ـ بالكلمة الطيبة تأخذ بمجامع القلوب، والموعظة المؤثرة تهز المشاعر، والقول البليغ في أنفس المخاطبين يحدث ما يحدث فيها من اليقظة والحياة، ناهيك عن خطاب العقل بالدليل الواضح والحجة الناصعة المقنعة، حتى إذا ذكرت الأسوة الحسنة بسلوكه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على كل مستوى، أدركت اكتمال النعمة، وفيض الرحمة برسالة الإسلام التي أمضاها ـ بتأييد الله ـ رحلة فريدة في عمر الزمن بدءاً من بعثته على رأس الأربعين، وحتى أذن الله بالأجل المحتوم، فانتقل إلى الرفيق الأعلى طاهراً مطهراً، صلوات الله وسلامه عليه، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ فإن خلود رسالته، وكونه خاتم النبيين، وما كان من نسخ شريعته لما سبقها، جعل من هذه الرحمة المهداة إلى العالمين أمراً لا ينتهي بوفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإن سنته المطهرة، وطريقته في بيان القرآن، وتطبيق شرائع الإسلام العملية، باقية بقاء الحق، تشرق على القلوب والعقول إشراقة دونها إشراقة الشمس، نماء وعافية لطلاب الحقيقة ورواد الآخرة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإنها لحجة من الله على عباده أن يأتمنه على وحيه، ويختم به النبوة والرسالة، ثم يحفظ ـ مع حفظ كتابه الكريم ـ سنته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما هيَّأ لها من العلماء العاملين المخلصين يحفظونها من العبث، ويخلصونها من شوائب الهوى والغفلة.. لكيلا يبقى عذر لمعتذر، ولا حيلة يتذرع بها كسول متهاون أو جبان متخاذل.

فمما لا ريب فيه أن قضية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يقابلها على خط الموازاة ـ كما تدل النصوص ويقتضيه العقل السليم ـ المسؤولية عن ذلك علماً وعملاً، لا تستثن شيئاً من التصور والتطبيق، وهي مسؤولية قامت أولاً على أهلية التكليف، وثانياً على انقطاع الحجة بوجود الكتاب محفوظاً بحفظ الله، محفوفاً بما صنف العلماء من كل علم يعين على التلاوة والفهم والتدبر والإحاطة بإعجازه قدرالمستاطع، ثم بوجود هدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين ظهرانينا في كل عصر ومصر، بما وطَّأ العلماء من نصوصه وما ذلَّلوا من شرحه وبيانه والحمد لله.

فإذا ذكرنا الرحمة المهداة بعمومها وتخطيها حدود الزمان والمكان والفوارق، وذكرنا الرسول الذي بلغ من حرصه على هداية الناس، ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. ووقفنا على بعض المعالم الخيرة من حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي تتمثل في ثلاثة وعشرين ربيعاً هي خير ما طلعت عليه الشمس في عمر الدنيا، وبما حفلت به أيامها ولياليها من صفاء العبودية لله، والجهاد الدائب المتواصل، والصبر والمصابرة، والعلم والتعليم، في حرص على الوقت وكل ما هو نافع في حياة الأمة.. أدركنا أي أهمية كان يعطيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته لهذا الخط الموازي من المسؤولية في مقابل إرساله ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحمة للعالمين.

وهذا الإدراك يكون طريقنا إلى وعي الأبعاد الحقيقية لبناء الجماعة المؤمنة القادرة على تحمل عبء تلك الرسالة، تلك الجماعة التي تشكل القاعدة

الصلبة؛ علماً وعملاً وأمانة واستعداداً للبذل والتضحية من أجل أن تؤتي الرسالة أُكُلُها في الناس، وتحمل إليهم سعادة الدارين، بما تنير من عقولهم وقلوبهم، وبما تقدم لهم من النظم الخيرة الدقيقة الشاملة.

ليس في مقدورك أن تتصور واحداً من رجال تلك المدرسة، تبارحه ـ وهو يغدو ويروح ـ فكرة التبعة والمسؤولية في مواجهة نعمة الله بالإسلام، ورحمته ببعثة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولقد كانت الممارسة اليومية، بل التمحيص الذي يزاولهم في كل ساعة من ساعات حياتهم، هو العنوان لالتزامهم الصادق، وشعورهم بالتبعة انسجاماً مع إيمانهم ومبايعتهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام.

وكان ذلك هو ضمانة الاستمرار للعقيدة: أن تعمل عملها في الأجيال اللاحقة، وللإسلام بكل أبعاده: أن يفرض وجوده في كل بقعة أظلتها راية التوحيد، حتى بت ترى كأن كل مسلم منوط به أن يشارك في عبء ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾؛ ذلك لأن جانباً من هذا المدلول يظل شديد العلاقة بالجماعة المؤمنة التي يجب أن تُبنى قلباً وعقلاً وسلوكاً وقدرةً على الجهاد من أجل تحقيق كلمة الله، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى، مادام خطاب التكليف واحداً للجميع، والاختلاف في بعض الأحكام مظهر من مظاهر حكمة الله في الخلق والتكوين لكل منهما.

إن قدراً كبيراً من الأمل في استئناف الطريق إلى هدي النبوة يتوقف على مدى إدراك مسلمي ومسلمات هذا العصر للتبعة التي يلقيها على كواهلهم

ارتباطهم بالرسالة، التي ما تزال ولن تزال غضة طرية بمنابعها الأصيلة الأولى كما أرادها الله، حتى يكون ذلك شغلهم الشاغل، والمحور الذي يقيمهم ويقعدهم، والغاية التي تشدهم إلى حياة الجد، والممارسة التي لا تعرف التهاون، والاستعداد للتمحيص الذي هو سنة الله في أحبابه الذين يأتمنهم على كلمته، ويجعلهم على ميراث من النبوة [**أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**]. وصدق الله العظيم: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾.

إن العهد الذي يقطعه المسلم على نفسه ـ بشكل تلقائي ـ حين يرضى أن يجعل من الإسلام عنواناً لعقيدته وتصوراته وسلوكه، فيشمر عن ساعد الجد، ويركب الصعب والذلول، يعني وجوب المسارعة إلى التزام ما به يكون كفاء هذا العهد، وموطن رحمة الله، ولكنها الغفلة في زحمة الحياة، وحب الدنيا الذي يوقع الناس في مهواة التناقض، فيكون المعتقد بجانب، وما يقتضيه هذا المعتقد بجانب، والعياذ بالله.

ترى أي سحر هذا الذي نجده في تلك الكلمات السهلة المحببة التي كان يلقيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فتفعل فعل الغيث العميم في الأرض الطيبة العطشى، كلمات هي صفوة القول في هذا الذي حوله ندندن ولم يترك فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باباً من الخير إلا أعطى مفاتيحه لهذه الأمة أن لو عقلت أمرها.

جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**من رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً، وجبت له**

الجنة] فعجب لها أبو سعيد فقال: أَعدْها عليَّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: [وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين ما بين السماء والأرض] قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: [الجهاد في سبيل الله].

هكذا تجب الجنة لمن رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.. والرضا يعني الكثير الكثير، وترجمانه في العقيدة والتصور والتشريع والسلوك: هو الكيان الكامل للأمة في حياة الفرد والجماعة.. وطريق ذلك الجهاد بكل شعبه وميادينه بدءاً من النفس بين جنبيك.. يا سبحان الله.. ما هذا الذي يكمن في الرضا.. وأي ساحات من الحياة والعمل والالتزام يجب أن تملأها مدلولاته العريضة.. وما هذا الذي يرفع الله به العبد مئة درجة في الجنة.. لقد آن للأمة أن تذكر ما يعنيه هذا الكلام، وما برهان صدقها في دعواه.. فتضع أقدامها على الطريق، بوعي لا تشوبه رغبات جامحة، ولا أهواء شاردة، وبثبات لا يعكره ارتجال، ولا تذهب بريحه فرقه، ولا يثني عن المضي فيه استعجال الثمرة واستبطاء ما وعد الله.

اللهم يا مقلب القلوب، أنت القادر، ونواصينا بيدك، أن تجعلنا بحقٍ عند الذي يعنيه الرضا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وصلاة الله وسلامه على من أرسله الله رحمة للعالمين، وأوحى إليه في محكم كتابه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.